الاتجاه الإسلاميّ في النّقد العربيّ

استحسان المعاني واستقباحها

د. وليد قصّاب

إن وجوه الاتّجاه الإسلاميّ والخلقيّ في النّقد العربيّ القديم كثيرة متنوعة، وقد وجد هذا الاتجاه من النّقد عند طوائف مختلفة من النقاد.

ويعرض هذا البحث لواحد من هذه الوجوه، وهو موقف النقاد العرب في استحسان معاني الشعر أو استقباحها، والثناء عليها أو ذمها والانتقاص منها، انطلاقا من القيم الفكرية التي تمثلها، أو تحرِّض عليها، من معيار إسلامي أو خلقي.

ونماذج معاني الشعر - المنقودةُ بحسب هذا المعيار - كثيرة لا تكاد تحصى، وسيتوقف هذا البحث عند بعضٍ منها من باب التمثيل لهذه الظاهرة.

◁◁ استحسان المعاني الدينية والخلقية

قارب كثير من النقاد العرب معاني الشعر من منطق إسلاميّ أو خلقي؛ فأثنوا على ما عكس منه قيماً رفيعة، أو أفكاراً سامية نبيلة، فكان دعوة إلى حميد الأخلاق، وكريم الصفات، وجليل المآثر والأفعال. وقد عرف النقد الخلقيّ للمعاني استحسانا واستقباحا منذ العصر الجاهليّ.

سئل الحطيئة مرة عن أشعر العرب، فقال: الذي يقول:

مَنْ يسأل الناس يحرموه
وسائلُ الله لا يخيبُ

يعني عبيد بن الأبرص[١].

وقال مرة: أبلغوا أهل ضابئ أنه شاعر حيث يقول:

لكلّ جديدة لذة غير أنني
رأيت جديد الموت غير لذيذ

وأبلغوا الأنصار أن صاحبهم يعني حسان أشعر العرب حيث يقول:

يغشون حتى ما تهرّ كلابُهم
لايسألون عن السواد المقبل[٢]

ومن الواضح أن الحطيئة يورد من أشعار هؤلاء ما يمثل معاني الحكمة والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

ومن الطريف في رسالة الغفران أن ابن القارح يرى عبيداً في الجنة، ويقول له عبيد: أخبرك أني دخلت الهاوية، وكنت قلت في أيام الحياة: من يسأل الناس...البيت... فسار هذا البيت في آفاق البلاد، فلم يزل يُنشد ويخفّ عني العذاب حتى أطلقت من القيود والأغلال، ثم كُرِّر إلى أن شملتني الرحمة ببركة ذلك البيت، وإن ربي لغفور رحيم..[٣].

فهو يعكس موقفا دينيا من الشعر، وتنويها بأثر الكلام، وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب.

وكانت العرب تُعجب بقصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري، وتقدمها:

بسطت رابعة الحبل لنا
فوصلنا الحبل منه ما اتسع[٤]

وفشا تيار الإعجاب بالمعاني الخلقية، والأفكار الدينية، وكلّ ما واطأ المثل الرفيع في الإسلام، وكان لتعاليم الدين - بطبيعة الحال - أثر في ذلك، إذ أصبح الدين معياراً هاماً من معايير الحكم على الكلام، ولم يعد باستطاعة الناقد وإن كان توجهه جماليا- أن يضمر إعجابه بالمعاني السامية، أو يخفي حنقه مما جافى الدين أوالأخلاق..

وأرسى النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته الراشدون - رضي الله عنهم - وكثير من الخلفاء والأمراء والعلماء هذا التوجه الإسلامي الخلقي في نقد الشعر، فأثنى النبي - عليه الصلاة والسلام - على كل ما واطأ الحق من الكلام وهو القائل: «إن من الشعر حكمة»، وفي رواية: إن من الشعر حكما»[٥] وأبدى إعجابه بنماذج معينة من الشعر «وكان استحسانه لها يمثل - في الوقت نفسه - توجيهاً إلى نمط من القول تصلح به الحياة، ويرضى عنه الإسلام. وكان له - عليه الصلاة والسلام - تعليقات وتعقيبات على هذه النماذج ترسم بعض الملامح والمعالم في سبيل بناء شعر صحيح التصور، سليم الرؤية..[٦].

عن أبي هريرة عن النبيﷺ أنه قال: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل..»[٧].

ومضى الخلفاء الراشدون يعمِّقون هذا التصور الإسلامي في نقد الشعر، وكان لعمر بن الخطاب خاصة - رضي الله عنه - القدح المعلى في هذا المضمار. كان يحاكم الكلام دائما إلى معايير الدين والأخلاق الإسلامية في الاستحسان والرفض، وفي التنظير والتقعيد. روى ابن شهاب أن عمر كان معجبا بقصيدة لبيد:

إن تقوى ربنا خير نَفَلْ
وبإذن الله رَيثي والعجل

وأمر بروايتها[٨].

وكان يعجب بقول عبدة بن الطبيب:

والعيش شح وإشفاق وتأميل..

ويقول: «على هذا بنيت الدنيا[٩].

ويقول زهير:

فإن الحقَّ مقطعُه ثلاثٌ
أداءٌ، أو نِفارٌ، أو جِلاءُ

وسمّى زهيرا قاضي الشعراء بهذا البيت[١٠].

وعرف مثل هذا التوجه الديني الخلقي في نقد الشعر عند معاوية بن أبي سفيان، فقد نحا منحى عمر في التنويه بأثر الشعر، والوظيفة الاجتماعية

والنفسية التي يمكن أن يضطلع بها، وصدر -مثل أبي حفص- عن تصور إسلامي للأدب، فاستحسن من القول النماذج الخيرة التي تربي خلقاً فاضلاً، أو تحث على مكرمة، أو تنهى عن مثلبة، و تقبح رذيلة.

سأل يوما جلساءه عن أشجع بيت وصف به رجل قومه، فقال روح بن زنباع: قول كعب بن مالك:

نصل السيوفَ إذا قصُرْنَ بخطونا
قِدماً ونلحقها إذا لم تلحقِ

فقال له معاوية: صدقت..[١١].

ونزع كثير من نقد عبد الملك بن مروان المنزع الخلقي، فاستحسن الأفكار النبيلة التي يعبر عنها الشعر، وأظهر ابتهاجه بها، وتشجيعه لها؛ كان معجباً بشعر عروة بن الورد الذي عكس الإيثار والكرم، وقبّح الاستئثار والشّح في قوله:

وإني امرؤ عافي إنائيَ شركة
وأنت امرؤ عافي إنائك واحدُ
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة
وأحسو قراح الماء والماءُ بارد
أتهزأ مني أن سمنتَ وأن ترى
بجسميَ مسَّ الحق والحق جاهدُ

وبلغ من إعجابه بشخصية هذا القائل الكريم أن قال:«ما يسرني أن أحداً من العرب ولدني إلا عروة لقوله: وإني امرؤ.....»[١٢].

وتنشد أمامه طائفة من الشعراء فيقول: أشعرهم - والله - الذي يقول:

وذي رحم قلمتُ أظفار ضغنه
بحلمي عنه وهو ليس له حلم[١٣]

وهي لمعن بن أوس، وهي كلها في الحكمة والأمثال ومحمود الخصال.

وسلك عمر بن عبد العزيز مسلك الخلفاء الراشدين في نقد الشعر، فصدر عن تصور إسلامي، فما كان يُعجب من القول إلا بما وافق الحق. كان يحب أن يستمع إلى شعر واحد مثل سابق البربري لما ينطوي عليه من وعظ و إرشاد، وتذكير بالموت، وإيقاظ من الغفلة والنسيان، وكان يُذَكِّر الشعراء أمانةَ الكلمة، ومسؤولية القول، ويقول لجرير - وقد أذن له من دون أصحابه بالدخول: «ويحك يا جرير، اتق الله ولا تقل إلا حقاً»[١٤] وكان يعجب بمثل قول القائل:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له
من الله في دار الحياة نصيبُ

فإن تُعْجبِ الدنيا أناسا فإنها
متاعٌ قليلٌ والزوالُ قريبُ

ويتمثل به[15].

من نقد الشعراء والنقاد:

فإذا اكتفينا بهذه النماذج من نقد هذه الطائفة الذين لم يكن الاشتغال بالشعر وكَدهمُ، ومضينا إلى الشعراء ورجالات الأدب والنقدة المتخصصين؛ وجدنا هذا الاتجاه الديني الخلقي يجري في أحكامهم، ويتمثل في إعجابهم بالمعاني النبيلة الشريفة، والثناء عليها وعلى أصحابها، والتمثل بها.

سئل الفرزدق مرة عن أشعر العرب؟ فقال: بشر ابن أبي خازم، قيل له: بماذا؟ قال: بقوله:

ثوى في مُلْحَد لابد منه
كفى بالموت نأياً واغترابا

ثم سئل جرير، فقال: بشر بن أبي خازم. قيل له: بماذا؟ قال: بقوله:

رهين بِلى وكلُّ فتىً سيبلى ..

فاتفقا على بشر[16]»، ومن الواضح أنهما اتفقا على الإعجاب بما في القصيدة من معان خلقية توجيهية.

وكان الخليل بن أحمد - فيما روى الأصمعي عنه - معجبا بقول المتلمس:

وأعلم علمَ حقٍ غير ظنٍ
لتقوى الله خيرٌ في المعاد
وحفظُ المال خيرٌ من فناه
وضربٍ في البلاد بغير زادِ
وإصلاحُ القليل يزيدُ فيه
ولا يبقى الكثير مع الفساد

وهو عنده من أحسن ما قاله المتلمس[17]» إذ فيه دعوة إلى التقوى، وحسن التدبير، وتقبيح التبذير. وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: لم تقل العرب بيتا قط أصدق من بيت الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَه
لا يذهب العُرف بين الله والناس[18]

كما كان الأصمعي معجبا بقول الحطيئة السابق، ويقول:«جاء بمثلين في بيت»[19].

وكان يونس بن حبيب يستحسن قول عدي:

أيها الشامت المُعَيِّر بالدهْر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام؟ بل أنت جاهلٌ مغرور

ويتمثل به، ويقول: «لو تمنيت أن أقول شعرا ما تمنيت إلا هذه..»[20].

الخليل بن أحمد

كما تجلى هذا المعيار الخلقي عند أبي عبيدة في استحسانه أنماطا من الشعر تنطوي على التفكر والاعتبار.

كان يقول: «أحسن مناطق الشعر المراثي والبكاء على الديار..»[21].

وعكس ابن سلام اهتماماً بالمعاني الخلقية، واستحسن أنماطا منها، كان معجبا - كأبي عبيدة - بشعر عدي لما ينطوي عليه من الحكم والمواعظ والأمثال، وآثر من شعره أربع قصائد قال عنها:«له أربع قصائد غرر مبرزات، وله بعدهن شعر حسن، أولهن:

أرواح مودِّعٌ أم بكور
أنت، فاعلم لأي حال تصير

وقوله:

أتعرف رسم الدار من أم مَعْبد
نعم، فرماك الشوقُ قبل التجلد

وقوله:

ليس شيء على المنون بباق
غير وجه المُسَبَّح الخلاق

وقوله:

ولم أر مثل الفتيان في غبَّر الأيا
م ينسون ما عواقبها[٢٢]

وغلبت على معظم النماذج الشعرية التي أوردها المبرد النزعة الخلقية. وعلى الرغم من أن همه الأول كان منصرفا إلى بيان ما في النصوص من نكت لغوية ونحوية إلا أنه نادراً ما كان يستشهد بما يجافي الأخلاق أو القيم الخيرة.

وهو يبدي -في غير مواطن - حماسة لبعض الأشعار التي انطوت على موعظة، أو حكمة، أو مثل رفيع. من قبيل ذلك مثلا إيراده قول حميد بن ثور:

وماهاج هذا الشوق إلا حمامة..

ثم تعليقه عليه قائلا: «وفي شعر حميد هذا ما هو أحكم مما ذكرنا وأوعظ، وأحرى أن يتمثل به الأشراف، وتسود به الصحف، وهو قوله:

أرى بصري قد رابني بعد صحة
وحسبك داءً أن تصِحّ وتسلما
ولا يلبث العصران: يومٌ وليلة
إذا طَلَبَا أن يدركا ما تيمَّما[٢٣]

ومن الواضح أنهما عنده من منتقى القصيدة ومختارها، وهو يؤثرهما على سائر أبياتها؛ لما يعبران عنه من نزعة خلقية حكمية رفيعة.

وحسبك أيضا أن تنظر فيما اختاره المبرد من أشعار المولدين، وقال بين يديها: «هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين: حكيمة مستحسنة، يُحتاج إليها للتمثل، لأنها أشكل بالدهر، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والكتب..... قال عبد الصمد بن المعذّل:

تكلفني إذلال نفسي لعزّها
وهان عليها أن أُهان لتُكرمها
تقول: سل المعروف يحيى بن أكثم
فقلت: سليه ربَّ يحيى بن أكثما[٢٤]

وقال الشاعر:....[٢٥].

وقد بدا المنزع الخلقي واضحا في الأشعار التي اصطفاها.

وللمبرد رسالة عنوانها «رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها»[٢٦] وهي كذلك نماذج لأشعار في الحكمة والموعظة تصلح للتمثل والاستشهاد واستخلاص العبرة.

وكان المعيار الديني والخلقي - في الحكم على الشعر وانتقائه - جليا عند **ابن قتيبة**؛ فقد قسم الشعر - بناء على عنصري اللفظ والمعنى - إلى أربعة أضرب، أردؤها ماساء لفظه وساء معناه، وأحسنها ما جاد لفظه وجاد معناه.

وكان واضحا - وهو يسوق الأمثلة ويتخيّرها - أن جودة المعنى ورداءتها يرتبطان بالقيم التي يتحدث عنها. فمن أمثلة ما جاد لفظه وجاد معناه قول أوس:

أيتها النفس أجملي جزعاً

إن الذي تحذرين قد وقعا

وقول أبي ذؤيب:

والنفس راغبةٌ إذا رّغبتها

وإذا تردّ إلى قليلٍ تقنعُ

وقول القائل:

يغضي حياءً ويُغْضَى من مهابته

فما يكلّم إلا حين يبتسم[٢٧]

والمتأمل في هذه النماذج يرى أنها جميعا من معاني الحكمة والموعظة والأمثال؛ فالشعر الجيد - عند ابن قتيبة - ما تضمن فائدة، والفائدة عنده هي المعنى الديني أو الخلقي.

ومن الواضح أن الناقد هنا يؤمن بالعلاقة الوثيقة بين اللفظ والمعنى؛ وأن الحسن يرجع إليهما معا؛ فأجود الشعر ما انطوى على قيم خيرة تعرض في أسلوب باهر متميز.

وأبان ابن قتيبة عن منزع خلقي في استحسان الشعر في كتبه الأخرى، ففي عيون الأخبار، فصل في كتاب العلم والبيان تحت عنوان «الأبيات التي لا مثل لها» وهي جميعا تتضمن معاني خلقية، تربوية دينية، كإكرام النفس، والاستعفاف، والإقدا، أو الحث على الصبر، وحسن الجوار، والتنفير من الإلحاف في المسألة، والتوكل على الله، وما شاكل ذلك.[٢٨].

ونزع **البغدادي** منزعا خلقيا في استحسان الشعر؛ فهو يورد قصيدة أمية بن أبي الصلت:

ألا كلّ شيء هالك إلا ربنا

ولله ميراث الذي كان باقيا

وعلق عليها بقوله: «هذه قصيدة عظيمة؛ تشتمل على توحيد الله، وقصص بعض الأنبياء: كنوح، ويوسف، وموسى، وداود، وسليمان، عليهم السلام[٢٩]».

وبدت هذه النزعة الخلقية كذلك عند **ابن بسام**؛ فقد اختار نماذج من الشعر، وأثنى عليها لما تضمنته من المعاني الرفيعة.

ومن ذلك مثلا ما ساقه من الأبيات لأبي جعفر - أحمد بن الأبار:

لم تدرِ ما خلّدت عيناك في خلدي

من الغرام وما كابدت في كبدي

وأثنى عليها لما فيها من التزام الحياء، فقال:«هي رائعة، ومتأخرة سابقة، في التزام العفاف مع السُّلاف...»[٣٠].

كما أورد ابن بسام بعض أشعار في العفة، لصريع الغواني، والصمة القشيري، والقس المكي، والعباس بن الأحنف وغيرهم.[٣١] وكان واضحا أن إعجابه بها بسبب التزامها العفة، وبعدها عن المجون والسفه...

وهكذا تجلى الاتجاه الديني الخلقي في النقد التطبيقي للشعر على شكل استحسان نماذج اشتملت على الحكم والأمثال والمعاني الشريفة المجانبة للسفه والطيش، مما عكس تقديرا لهذه القيم، واحتفاء بها، وعدها من صميم وظيفة الشعر، ومما يزيده قدراً وجلالاً، ومما يحتكم إليه الناقد وهو ينزل النص منزلته...

وقد أوردنا نماذج يسيرة، لا تمثل إلا غيضا من فيض مما تحفل به كتب التراث.

استقباح المعاني المخالفة للدين والأخلاق

ومن وجوه التيار الديني والخلقي في النقد العربي القديم نفرة النقاد من أي شعر تشتم منه رائحة استهتار ديني، أو عبث بالقيم الإسلامية، أو أعراف المجتمع الأصيلة.

ولن تجد ناقدا - مهما كانت حماسته للاتجاه الفني، ومهما كان معجباً بشاعر ما يثني عليه ويقدِّمه - يرضى عن شعر تزندق فيه صاحبه، أو استبهر بالفواحش، أو جاهر بالمعصية، أو كسر فيه الشرائع والأخلاق.

وإن ثناء الناقد على شاعرية شاعر ماجن، وإقراره له بالعبقرية والتبريز أمر، وقبوله ما يقوله أمر، وهما يمثلان منزعين مختلفين، فالأول من الموضوعية والنصفة، والثناء على الشاعرية حكم فني مجرد لا يعكس موقفاً فكرياً ما. وأما استحسان ما يقوله هذا القائل من مجون وفحش فهو الذي يعكس هذا الموقف.

إن بين النقاد ما يشبه الإجماع على تقديم امرئ القيس على شعراء الجاهلية، ولكن ما أكثر الذين استهجنوا ما صدر عنه من فحش وإباحية. وما أكثر الذين أشادوا بشاعرية أبي نواس، ولكن كم آخذه هؤلاء أنفسهم على عبثه وفرطات لسانه! وإن نماذج النقد التطبيقي التي هجَّنت القيم الرديئة في الشعر، وثلبت قائلها، فعابت فحشه، أو قلة تورعه، أو رقة دينه، أو ضياع مروءته وشهامته، لأكثر من أن تُحصى، وقد عُرف هذا الاتجاه الخلقي كذلك منذ العصر الجاهلي، إذ نُقدت بعض الأشعار بمعيار خلقي، واهتدى الناقد في محاكمتها بما في فطرة الإنسان السوية من محمود الخصال، ونبل الصفات. بلغ حاتماً الطائيَّ قولُ المتلمس:

قليلُ المال يصلحه فيبقى
ولا يبقى الكثير مع الفساد
وحفظُ المال خير من فناء
وعسفٍ في البلاد بغير زاد

ففهم منه الدعوة إلى البخل، والاحتراز من الإنفاق، فعابه قائلا: «قطع الله لسانه، حمل الناس على البخل واستجاد في مقابل ذلك أن يقال:

فلا الجودُ يُفني المال قبل ذهابه
ولا البخلُ في مال الشحيح يزيدُ
فلا تلتمسْ مالا بعيش مقترّ
لكل غد رزقٌ يعود جديدُ[٣٢]

ازدهر هذا التيار في الإسلام، متأثرا بتعاليم العقيدة فاتخذ منحى دينيا، وغدت القيم والأفكار التي أرساها الإسلام لُحمة الذوق الفني وسداه، ولم يعد باستطاعة ناقد أن يتجاهلها، أو يعجب بشعر يهدرها.

وقد بينا قبل قليل - ونحن نتحدث عن استحسان المعاني الدينية والخلقية أن النبي - عليه الصلاة والسلام - هو الذي غرس بذرة هذا الاتجاه النقدي، ثم ترسمه الخلفاء الراشدون، وكثير من الخلفاء والأمراء والعلماء والنقاد، فضُرب الكلام - شأن أي أمر آخر من أمور الحياة - على محك القيم الإسلامية، فصدر الحكم عليه استحسانا أو استقباحا.

سمع عمر بن الخطاب قول الحطيئة:

وإن جياد الخيل لا تستفزنا
ولا جاعلات الريط فوق المعاصم

فاستهجنه، وقال: كذب، لو ترك هذا أحد لتركه رسول الله ﷺ إذ روي أنه سبق على فرس فجثا على ركبتيه وقال: إنه لبحر...[٣٣].

وسمع قول طرفة:

فلو لا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى
وحقّك لم أحفل متى قام عُوَّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة
كُميت متى ما تعلّ بالماء تُزْبِد
وكرّي إذا نادى المضافُ محنّباً
كسيد الغضا، نبّهته، المتورّد
وتقصيرُ يومِ الدَّجنِ والدَّجنُ معجِبٌ
ببهكنةٍ تحت الطِّرافِ الممدّد

فاستهجن ثلاث الشاعر الدنية التي ذكرها في معلقته وهي الخمر، وإجابة المذعور المتلهف، والتمتع بامرأة جميلة بهْكَنةَ، واستبدل بها ثلاثا جليلة تليق بعزة المؤمن، فيقول: «لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقواما ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التمر لم أبال أن أكون قد متّ..»[٣٤].

وسمع عبد الله بن جعفر رجلا يتمثل بقول الشاعر:

إن الصنيعة لا تكون صنيعةً
حتى يُصاب بها طريق المصنع
فاذا أصبت صنيعة فاعمد لها
لله أو لذوي القرابة أو دعِ

فقال عبد الله: هذان البيتان يبخّلان الناس، لا، ولكن أمطر المعروف إمطارا، فان أصاب الكرام كانوا أهلا له، وإن أصاب اللئام كنا أهلا له...»[٣٥].

وأنكر سليمان بن عبد الملك بعض شعر الفرزدق الذي استبهر فيه بذكر الفاحشة، وأوشك أن يقيم عليه الحد، لولا أن الفرزدق اعتذر بأنه تسمَّح في القول، وادعى ما لم يفعل، على نحو ما وصف الله الشعراء في قوله: «وأنهم يقولون ما لا يفعلون»[٣٦].

وأظهر هشام بن عبد الملك استنكارا لقول أبي النجم لابنته يوصيها ليلة زفافها:

سُبّي الحماةَ وابهتي عليها
وإن أبت فازدلفي إليها

لما يعكسه من خلق غير كريم، وقال له:«ما هكذا أوصى يعقوب ولده..»[٣٧].

واستنكر سعيد بن المسيب قول عمر بن أبي ربيعة:

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه
وروّح رعيان ونوّم سُمَّر

وحاكمه إلى معيار ديني، فقال: ما له، قاتله الله! لقد صغر ما عظم الله. يقول الله عز وجل: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ (يس)[٣٨].

واستقبح عبد الملك بن عبد العزيز قول قيس بن ذريح:

نباح كلب بأعلى الوادي من شرف
أشهى إلى النفس من تأذين أيوب

وسأل: من أيوب؟ والله لا يحلّ لك أن تروي هذا، هذا كفر...»[٣٩].

وسمعت سكينة بنت الحسين شعرا للفرزدق أفحش فيه:

هما دلتاني من ثمانين قامة...

فأنكرت عليه وقالت له: سوأة لك،أما استحييت من الفحش تظهره في شعرك؟ ألا سترت عليك! أفسدت شعرك...»[٤٠].

واحتكم عبد الملك بن مروان كثيرا إلى المعايير الدينية والخلقية في استحسان الشعر واستقباحه.

أخذ على نصيب ما رآه من قبيل التفريط بالغيرة، والضمور في الشهامة في قوله:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت
فيا ويح دعد من يهيم بها بعدي!؟

ورأى الأدنى إلى المروءة أن يقال في التعبير عن هذا المعنى:

تحبكم نفسي حياتي فإن أمت
فلا صلحت هند لذي خلة بعدي[٤١]

وضرب عبد الملك على المحك الديني قول الشماخ في عرابة الأوسي:

إذا بلّغتني وحملت رحلي
عرابة، فاشرقي بدم الوتين

فاستهجنه وقال:«بئس المكافأة كافأها، حملت رحله، وبلغته بغيته، فجعل مكافأتها نحرها»[٤٢].

وشاع هذا النقد الديني لقول الشماخ عند كثير من الرواة، واحتكموا فيه إلى موقف رسول الله ﷺ من الأنصارية المأسورة التي نجت على ناقته - عليه الصلاة والسلام - فقالت:«إني نذرت يا رسول الله إن نجاني الله عليها أن أنحرها»، فقال لها النبي - عليه الصلاة والسلام: «بئسما جزيتها».

وآثروا قول الحسن بن هانئ لمحمد الأمين:

فإذا المطي بنا بلغن محمداً
فظهورهن على الرجال حرام

فهو ضد المعنى السابق. وكذا قوله:

أقول لناقتي إذ ابلغتني
لقد صبحتِ مني باليمين
فلم أجعلك للغربان نُحْلا
ولا قلتُ: اشرقي بدم الوتين[٤٣]

وقالوا: ومما لم يعب في هذا الشأن قول عبد الله ابن رواحة:

إذا بلّغتني وحملت رحلي
مسيرة أربع بعد الحِساء
فشأنك فانعمي وخلاك ذمٌ
ولا أرجِعْ إلى أهلي ورائي

ولكن تبع الشماخ في القباحة ذو الرمة في قوله:

إذا ابن أبي موسى بلالا بلغته
فقام بفأسٍ بين وصليك جازر[٤٤]

وإذا مضينا إلى الكتاب ونقدة الشعر المتخصصين رأينا للاتجاه الديني والخلقي حضورا جليا في أحكامهم، فقد عابوا كثيرا من المعاني التي استهترت بالقيم الدينية، وكانت أحكامهم في أحيان غير قليلة حادة عنيفة، تشعر بنفرتهم من أي معنى لم يوقر الدين والأخلاق الأصيلة حق توقيرهما. يورد المبرد قول أبي نواس:

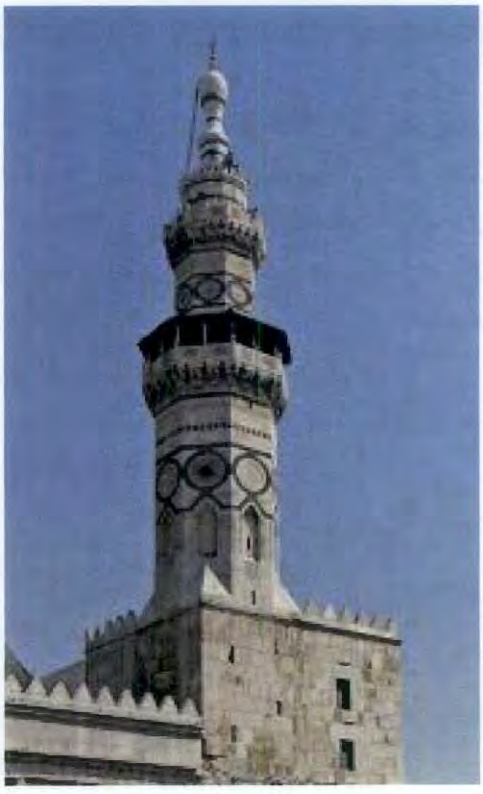

كيف لا يدينك من أمل
من رسول الله من نفرهْ

ويقول في نقده:«هو لعمري كلام مستهجن موضوع في غير موضعه، لأن حق رسول الله. ﷺ أن يضاف إليه، ولا يضاف إلى غيره[٤٥].

ويورد قول الفرزدق في رثاء امرأة ماتت بجمع (أي ولدها في بطنها):

وجفن سلاح قد رزئت فلم أنح
عليه، ولم أبعث عليه البواكيا
وفي جوفه من دارم ذو حفيظة
لَوَ انَّ المنايا أنسأته لياليا

ويعيبه قائلا:«هذا من البغي في الحكم والتقدم...»[٤٦] كأنه يأخذ عليه اعتراضا على حكم القدر، ويسمي ذلك بغيا في الحكم.

ويصدر أبو عمرو الشيباني عن نظرة دينية فينهى عن أي قول يحمل معنى التشاؤم، أو تمني الضر والسوء، روي أنه قال لأصحابه:«لا يتمنين أحد أمنية سوء؛ فإن البلاء موكل بالمنطق»، فالمؤمل قال:

شف المؤمل بعد الحيرة النظر
ليت المؤمل لم يُخْلَقْ له بصرُ

فذهب بصره.

وهذا مجنون بني عامر قال:

فلو كنت أعمى أخبط الأرض بالعصا
أصمَّ فنادتني أجبت المناديا

فعمي وصم..»[٤٧].

وشبيه بموقف أبي عمرو الشيباني من حيث التورع الديني استهجانهم قول مجنون بني عامر:

قضاها لغيري وابتلاني بغيرها
فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

فقد روى أبو عمرو بن العلاء أنه كان يتحدث في البادية أن المجنون لما قال الكلام السابق ذهب بصره[٤٨]، وكأنما ذلك عقاب إلهي بسبب تمنيه السوء، وترخصه في القول.

ويشتد أبو عبيد البكري في الإنكار على أبي نواس في قوله:

باح لساني بمضمر السر
وذلك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات منقلب
وإنما الموت بيضة العقْر

ويقول عنه:«هذا قول دهري زنديق.....»[٤٩].

واستهجن ابن قتيبة بعض شعر العكوك الذي عكس تساهلا دينيا، فقال:«ومما أسرف فيه فكفر أو قارب على الكفر قوله لأبي دلف:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها
وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددتَ مدى طرف إلى أحد
إلا قضيت بأرزاق وآجال[٥٠]

وأورد العسكري طائفة مما سماه «كلام الملحدين - لعنهم الله - فمنهم قول ديك الجن:

هي الدنيا وقد نعموا بأخرى
وتسويف النفوس من السوافي
فإن كذبوا أمنت.....

وقال ابن أبي البغل:

باح ضميري بمضمر الأمر
وذاك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات حادثة
وإنما الموت بيضة العقر

وقال آخر:

يا ناظرا في الدين ما الأمر
لا قدر صح ولا جبر
ما صح عندي من جميع الذي
يذكر إلا الموت والقبر

ثم عقب عليها قائلا: قبحهم الله! لقد أعظموا القول، ولم ينتفعوا إلا بالفضيحة في الدنيا والإثم في الآخرة..» ثم اعتذر عن إيراد هذه النماذج قائلا:«وإنما أورد مثل هذا لتعرف أهله، ولأن تسمية الكتاب توجبه...»[٥١]. وينقد العبيدي نقدا إسلاميا شرعيا قاسيا قول الشاعر:

ولائمٍ لج في عذلي وعنّفني
على المدام وعيشي دونها نقص
فقلت: دعني، فما شربي لها رفث
ولا فسوق كما جاءت به القصص
لكن غصصت بزاد الهمّ أطعمه
والخمر حلٌّ إلى أن يذهب الغصص

وبعد أن شرحه بين ما فيه من المخالفات الشرعية؛ حيث لم يجعل الشاعر شربه لها رفثا ولا فسوقا، وجعلها حلالا إذا أذهبت الهمّ، وقال:

لا شك أن هذا مخالف لمذهب الإسلام، ولا يعتقد هذا إلا منافق. اللهم غفرا وتجاوزا عنا»[٥٢].

واحتكم الآمدي في نقد بعض المعاني إلى معايير دينية وخلقية، فذكر من خطأ الشعر قول عدي بن الرقاع يذكر الله تبارك اسمه:

وكفك سبطة وندالك سمح
وأنت المرء تفعل ما تشاء

إذ أخذ عليه تسمحه في القول «فجعل ربه مرءا....»[٥٣].

وذكر من أخطاء أبي تمام قوله:

سأحمد نصرا ما حييت وإنني
لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

لأنه ضربه على المعيار الديني، فقال في نقده: أخطأ «لأنه رفع الممدوح عن الحمد الذي ندب الله عباده إليه، بأن يذكروه به، وينسبوه إليه، وافتتح فرقانه في أول سورة بذكره، وحث عليه. وللعرب في ذكر الحمد ماهو كثير في كلامها وأشعارها، ما منهم من رفع أحدا عن أن يحمد..»[٥٤].

وأطال ابن بسام في نقد الشعر المخالف للعقيدة والأخلاق، وأكثر من التشنيع على أصحابه، وتشديد النكير عليهم، وسخر منهم بعبارات لاذعة.يعلق على قصيدة أحمد بن خيرة القرطبي في مدح ابن النغريلة اليهودي:

وما اكتحلت عيني بمثل ابن يوسف
ولست أحاشي الشمس من ذا ولا البدرا

قائلا:«وله في هذه القصيدة من الغلو في القول ما نبرأ منه إلى ذي القول والحول.. فما أدري من أي شؤون هذا المدل بذنبه، المجترئ على ربه أعجب؟ ألتفضيل هذا اليهودي المأفون على الأنبياء والمرسلين؟ أم خلعه إليه الدنيا والدين! حشره الله تحت لوائه، ولا أدخله الجنة إلا بفضل اعتنائه..»[٥٥].

وفي رسالة الغفران لأبي العلاء المعري نماذج كثيرة جدا من هذا النقد الديني والخلقي للمعاني، حتى ذهب الظن بأبي العلاء - على طريقته في الكلام

على شعراء الجنة وشعراء النار إلى أن بعض الأشعار كانت سببا في دخول أصحابها الجنة، وبعضها الآخر كان سببا في دخول النار . وإن هذا ليعكس - فيما يعكسه - موقفا خلقيا من الناقد يتمثل في استشعار خطر الكلام، وأنه مسؤولية يحاسب عليها القائل، فعلى الشاعر ألا يصرفه التجويد اللفظي عن حقائق المسائل وجواهرها، وعليه أن يقدر القول حق قدره، فقد يكبه في الجنة أو في السعير.

يورد أبو العلاء - في معرض كلامه على خمر الجنة - طائفة مما قاله بعض الشعراء الذين نهموا بخمر الدنيا، كعلقمة، وأبي الهندي، وأبي زبيد وغيرهم، يسوق قول علقمة:

تشفي الصداع ولا يؤذيه صالئها

ولا يخالط منها الرأسَ تدويم

ويعلق عليه هذا التعليق الديني قائلا:«قال علقمة ذلك مفتريا، ولم يكن لعفو مقتريا»[٥٦].

وقال عن أبي الهندي - وأورد بعض ما قاله في الخمر - «ما حكم به أبو الهندي - رحمه الله - فقد آثر شراب الفانية، ورغب في الدنيا الدانية..[٥٧].

وقال عن أبي زيد - في موطن كلامه على أباريق خمر الجنة: «ولو رأى تلك الأباريق أبو زيد لعلم أنه كان كالعبد الماهن أو العُبيد، وأنه ما تشبب بخير، ورضي بقليل المير» وهزئ من قوله:

وأباريق مثل طير أعناق الماء[٥٨]

وقال عن علقمة الذي ذكر أباريق خمر الدنيا:«وأين يراها المسكين علقمة، ولعله في نار لا تغير، ماؤها للشارب وغير (مغلي)؟ ما ابن عبدة وما فريقه؟ خسر وكُسر إبريقه. أليس هو القائل:

كأن إبريقهم ظبي على شرف

مجدل بسبا الكتان مفدوم

أبيض أبرزه..[٥٩].

وينعكس مثل هذا الموقف الديني في رسالة الغفران عندما يلقى بن القارح طرفة بن العبد - الذي أغرم بالخمر - في النار، فيقول له - بعد أن يورد شيئا مما قاله فيها:«كيف صبوحك الآن وغبوقك؟ إني لأحسبهما الآن حميما. ولا يفتأ من شربهما ذميما» ثم يسأله ساخرا عن داليته التي ذكر فيهما الخمر. ، وافتخر بشربها فيقول طرفة: وددت أني لم أنطق مصراعا، وعدمت في الدار الزائلة إمراعا، ودخلت الجنة مع الهمج والطغام..[٦٠].

وكان ابن عبدالبر القرطبي شديد الوضوح في نزعته الدينية، وإلى هذا المعيار النقدي وحده احتكم في اصطفاء نصوص «بهجة المجالس» وإذا مر به ما يتجافى مع هذه النزعة أعلن ضيقه به وبصاحبه. فيقول مثلا عن شعر الحطيئة في أمه:«وللحطيئة في أمه، لا عفا الله عنه:

تنحي فاقعدي مني بعيدا

أراح الله منك العالمينا

أغربالا إذا استودعت سرا

وكانونا على المتحدثينا

جزاك الله شرا من عجوز

ولقّاك العقوق من البنينا[٦١]

وهكذا تجلى الاتجاه الديني الخلقي في النقد التطبيقي في جانبه الآخر، وهو استقباح المعاني الرديئة، وهي التي انطوت على شيء من العبث الفكري، أو الاستبهار بالفاحشة أو الترويج لقيم فاسدة.

وقد قابلت هذه المعاني فئات مختلفة المشارب من النقاد العرب بالسخط والنفور، ولم تبد ذات حظوة أو احتفاء عند أي ناقد، حتى النقاد الجماليين الذين فصلوا بين الشعر والأخلاق، وحكموا المعيار الفني وحده في إنزال الشاعر منزلته، فهؤلاء - وإن دافعوا عن الشاعر أحيانا لما يتهم به من فساد في العقيدة، أو انحراف في الرؤية الفكرية، أو إظهار للفحش والمجون، بدوا - في مجال التطبيق العملي -، ومواجهة الأشعار المنحرفة - على خلاف ما ذهبوا إليه نظريا، وبدت مثل هذه الأشعار تصدم حسهم الديني، وذوقهم الفني معا، فلم يملكوا إلا إنكارها وتسفيهها أشد الإنكار والتسفيه■

الهوامش:

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة: ٣٢٥.
(٢) الأغاني: ١٩٥/٢.
(٣) رسالة الغفران لأبي العلاء: ١٨٦.
(٤) شرح شواهد المغني للسيوطي: ٧٤٠.
(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد: ٣٧٥.
(٦) انظر كتابي «النظرة النبوية في نقد الشعر»، ص٣٤-٣٩.
(٧) صحيح البخاري :٦٤١/٨.
(٨) كنز العمال : ٨٥٣/٣ .
(٩) البيان والتبيّن : ٣٤١/١، وانظر كتابي عن نقد عمر في سلسلة أعلام إسلامية في الأدب والنقد.
(١٠) العمدة لابن رشيق : ٥٦/١ .
(١١) الأغاني: ٢٣٤/١٦، وانظر كتابي عن معاوية «سلسلة أعلام إسلامية في الأدب والنقد.
(١٢) الشعر والشعراء ٦٧٦.
(١٣) الأغاني: ٦٠/١٢.
(١٤) شرح شواهد المغني: ١٩٧/١.
(١٥) بهجة المجالس لابن عبدالبر القرطبي: ٢٨٥/٢.
(١٦) العمدة: ٢٠٥/١.
(١٧) شرح شواهد المغني: ٢٩٨/١.
(١٨) الأغاني: ١٧٣/٢.
(١٩) مختارت ابن الشجري: ٤٢٢.
(٢٠) طبقات فحول الشعراء لابن سلام: ١٤١.
(٢١) المحاسن والمساوئ للبيهقي: ٣٤٦.
(٢٢) طبقات فحول الشعراء: ١٠٤-١٤٢.
(٢٣) الكامل للمبرد: ١٠٣١، «ط مؤسسة الرسالة».
(٢٤) السابق: ٥١٢.
(٢٥) انظر السابق، وفيه نماذج كثيرة: ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧، ٧٢٣... وغيرها.
(٢٦) انظرها في نوادر المخطوطات، لعبد السلام هارون: ١٦٥.
(٢٧) الشعر والشعراء: ٧١/١.
(٢٨) عيون الأخبار لابن قتيبة: ١٩٠/٢-٢٦٠.
(٢٩) خزانة الأدب للبغدادي: ٢٤٦/١.
(٣٠) الذخيرة لابن بسام، القسم الثاني، المجلد الأول: ١٣٦.
(٣١) السابق: ١٣٦-١٤٠.
(٣٢) شرح شواهد المغني: ٢٠٩/١.
(٣٣) ديوان الحطيئة: ٣٣٦، الأغاني: ١٧٧/٢٠.
(٣٤) البيان والتبين: ١٩٥/٢.
(٣٥) بهجة المجالس: ٣٠٤/١.
(٣٦) الكشاف للزمخشري: ٢٧١/٣.
(٣٧) الكامل للمبرد: ٩٥/٣، ط مصر ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.
(٣٨) الأغاني: ٨٤/١.
(٣٩) الموشح للمرزباني: ٣٢٣.
(٤٠) الموشح: ٢٦٦.
(٤١) الشعر والشعراء: ٤١٢، ونسب هذا النقد لسكينة بنت الحسين، الموشح: ٢٥٤، ولكثيّر: الكامل: ١٥٧/٢، ط مصر.
(٤٢) الأغاني: ١٦٨/٩.
(٤٣) العقد: ٣٤٠/٥.
(٤٤) الكامل: ١٢٩/١، طبعة مصر.
(٤٥) السابق: ٥٢٨، ط مؤسسة الرسالة.
(٤٦) السابق: ١٣٨٨.
(٤٧) الموشح: ٣٢٥.
(٤٨) السابق: ٣٢٤.
(٤٩) سمط اللآلي لأبي عبيد البكري: ٥٢٣/١.
(٥٠) الشعر والشعراء: ٨٦٦.
(٥١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري: ٢٥١/٢.
(٥٢) شرح المضنون به على غير أهله لعبيدالله بن الكافي العبيدي: ٥٢٥.
(٥٣) الموازنة: ٤٩/١.
(٥٤) الموازنة: ٢٠٧/١، وانظر أمثلة أخرى: ٥٠/١-٥١.
(٥٥) الذخيرة: القسم الأول، المجلد الثاني: ٧٦٣-٧٦٥.
(٥٦) رسالة الغفران: ١٤٢، والمقتري: الطالب.
(٥٧) السابق: ٤٣.
(٥٨) السابق: ١٤٤.
(٥٩) السابق: ١٤٥.
(٦٠) السابق: ٣٣٤، وثمة نماذج أخرى: ٢١٩، ٣٢١.
(٦١) بهجة المجالس: ٥٢٥/١.